محطات حول ركن (الثقة)

15 يناير 2020

داعي إلى الله إيمانه عميق، ثقته كبيرة في انتصار هذا الدين؛ فهو يؤمن بأن الإسلام لابد وأن ينتصر، ويسود الدنيا.

تعريفها
أهميتها
صورها
من معاني النصر

تعريفها
هي الاطمئنان القلبي الذي لا يخالجه شك.

أهميتها
الثقة من العوامل اللازمة للأفراد؛ (لسلامتهم وصلاح شأنهم) وللمجتمع؛ (لنهضته ورقيه)، وللصف؛ (لقوته وتماسكه) وللمنهج؛ (لتثمر الاعتزاز به، والحرص عليه، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله)....

وتزداد الحاجة إلى هذه الصفة إلحاحًا في أوقات المحن والابتلاءات، فحين تستعر حرب المبطلين، ويشتد تضييقهم على جند الحق تخفف الثقة في معية الله وتأييده ونصره من شدة الوطأة وألم الصراع.

وحين تتولى محاوي الدسّ والوقيعة تحبط الثقة المتبادلة بين القيادة والجنود الكيد... وهكذا...

صورها:

أولاً: الثقة في الله تعالى:

وقد يقصد بها اليقين في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه، وصفاته عز وجل، ولن نتطرق لهذا المعنى هنا، ولكننا سنتناول سائر الجوانب المتعلقة بهذه الصورة من الثقة:

أ- الثقة في معيته لعباده الصالحين:
فها هو موسى-عليه السلام- ومن معه، قد خرجوا فرارًا بدينهم، فاستشاط فرعون غيظًا، وخرج يلاحقهم بقواته.... وحلَّت لحظات الحرج والضيق... فقد لاح خطر العدو المطارد من الخلف، وخطر لجج البحر المغرقة من الأمام، وهنا يصرخ أتباع موسى مذعورين مستسلمين ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء: من الآية61) فيأتي رد موسى، الموقن الواثق؛ ليبدد المخاوف والظنون؛ وليسكب السكينة والطمأنينة: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:62).
وهنا تظهر بركة هذه الثقة معجزة مبهرة تنجيهم، وتهلك عدوهم ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ*وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ*وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ*ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ*إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ*وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء:63-68) .
وها هو حبيبنا وقدوتنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- مع صاحبه في الغار، وقد أطبقت عليهما جحافل الحنق المحموم، وهما أعزلان، ولا مهرب لهما ولا حيلة، وهنا يهمس الصديق-رضي الله عنه- متحسرًا مشفقًا (يارسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا). فتنبعث نبرات الثقة من القلب الموقن بمعية الله، (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا) وعندئذ تتجلى قدرة ذي العزة والجبروت فيرد قوى الشر والبغي هذه بأوهى الأسباب، بخيوط العنكبوت، ويسجل القرآن هذا الموقف بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:40)
ب- الثقة في وعده بالنصر والتمكين لجنده المؤمنين:
ألم يقل ربنا عز وجل، وقوله الصدق:﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (غافر:51-52)

وقد راينا مظاهر هذه الثقة متكررة في سيرة رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وبخاصة في اشد المواقف حرجًا وخطورة.... فهاهم المسلمون ياتون شاكين إليه ما يقاسونه من صنوف التعذيب، الذي طال أمده، قائلين: "أهكذا الدهر يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا" فبم أجابهم؟ إنه ذكَّرهم بما لاقاه سابقوهم على درب الحق، من عذاب أقسى وأنكى، ثم بشرهم بعدها بانتصار الحق الذي هم عليه، فقال ".. والله ليتمن الله هذا الأمر. حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون"

وما أعظم ثقته - صلى الله عليه وسلم- بخضوع الآفاق لمنهجه الحق في موقفه مع سراقة بن مالك الذي خرج مطاردًا له، وقد أوشك أن يدركه، لولا أن ساخت أقدام فرسه في الرمال مرة بعد مرة، وهنا ينادي سراقة طالبًا الأمان من رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فيعطيه ما طلب، ويزيده وعدًا بالفوز بسواري كسرى، عندما تفتح إيوانَه كتائبُ التوحيد في أمد ليس ببعيد.

وقد تكرر هذا المعنى إبَّان حفر الخندق، وقد قرر المسلمون تجنب الالتحام مع المشركين؛ خشية الاستئصال. ومع هذا يبشرهم رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بفتح الممالك الثلاث، بينما يضرب بمعوله صخرة صلدة استعصت على أصحابه هاتفًا "الله أكبر فتحت فارس، والذي نفسي بيده، إني لأرى قصور المدائن الحمراء الساعة. الله أكبر فتحت الروم، والذي نفسي بيده إني لأرى قصور بصرى البيضاء الساعة. الله أكبر فتحت اليمن، والذي نفسي بيده إني لأرى قصور صنعاء الساعة".

ثانياً: الثقة في النفس:

وهى الوجه الآخر للثقة في الله تعالى، فقد مضى شأن الصالحين قديمًا وحديثًا على التبرؤ من الحول والقوة والطول إلا بالله عز وجل، وقد قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم- "لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة"

وكان دعاؤه-صلى الله عليه وسلم- يفيض بهذا المعنى في مثل قوله-صلى الله عليه وسلم- "اللهم لا تلكني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك" وقوله-صلى الله عليه وسلم- "اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل".

وقوله-صلى الله عليه وسلم- "اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً".

وهذا لا يمنع من انعكاس أثر الثقة في الله تعالى على النفس قوةً وعزةً وثباتًا وإقدامًا...

ألم تر إلى موقف نوح-عليه السلام- من قومه، وقد تنكروا له، وتألبوا عليه، فلم يأبه لهم!! بل تعجل كيدهم له وإيقاعهم به؛ ليقينه في حفظ الله له، وقد لاذ بجنابه، واقرأ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ* فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ*فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (يونس:71-73)

وقد بلغ هذا النوع من الثقة حدًا مدهشًاعند ذلك الغلام المؤمن، الذي جعل الملك الظالم يريد التخلص من قضيته، واستنفر لذلك جنده وأعوانه، فلا يستعمل هو إلا سلاح: (اللهم اكفنيهم بما شئت)

فينجيه الله-عز وجل- من الجبل الشاهق، وقد أرادوا أن يدهدهوه من فوقه، ومن البحر الهادر، وقد أرادوا أن يغرقوه فيه، ويرجع إلى الملك في كل مرة سالمًا، وقد ارتدّ كيد أعدائه إلى نحورهم، فهلكوا بما مكروا.. ثم يقول للملك في النهاية: (إنك لن تتمكن مني حتى تفعل ما آمرك به) فيسأل متلهفًا: (وما هو؟) فيسترسل الغلام: (تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تأخذ سهمًا من كنانتي وتقول: باسم الله، رب الغلام، فإنك إن فعلت هذا قتلتني) فلا يتردد الأحمق في تنفيذ ما أمره به الغلام؛ لتلهفه على التخلص منه، ويقع فيما كان يحذر منه حين يعلن الناس في لحظة واحدة إيمانهم برب الغلام، فيا لعظمة الثقة في النفس حين تنبعث من الإيمان الصادق بالله والتوكل التام عليه!!

وقد رأينا هذه الثقة أيضًا في موقف رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يوم حنين، حين انهزم المسلمون ولاذوا بالفرار من هول المفاجأة التى أعدها لهم أعداؤهم، وتخلو الساحة إلا من سيد الخلق محمد-صلى الله عليه وسلم- وهو يرتجز على بغلته: "أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب" ومع ما في هذا الإعلان عن نفسه من خطورة بالغة على حياته- صلى الله عليه وسلم- فإنه المستهدف الأول لهذه الجموع المتكالبة المحاربة، ولكنها الثقة في النفس بهذا المعنى الخاص، الذي نحن بصدده، وببركتها رجع الفارون من كل صوب، والتفوا حول قائدهم ورمزهم-صلى الله عليه وسلم- فكان النصر المبين مع الغُنْم الوفير الشهير..

ونلحظ هذه الثقة كذلك في موقف آخر حين كان رسول الله-صلى الله عليه وسلم- مستلقيًا في ظل شجرة، في سلام وسكينة، وإذا بعدو يظهر فجأة ممتشقًا سيفه وملوحًا به يريد قتله-صلى الله عليه وسلم- ثم سأل قبل أن يهوي به عليه: (من يمنعك مني؟) فإذا-صلى الله عليه وسلم- يرد بكل اليقين والطمأنينة: (الله). هو باقٍ على حاله.. لم يتحرك قيد شعره، ولم يرتبك لحظة، فإذا بالعدو يرتعد، ويسقط السيف من يده، فيأخذه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ويعلو به رأس هذا الغادر ويسأله (فمن يمنعك مني الآن؟) فلم يجد إلا التعلق بحلمه وعفوه-صلى الله عليه وسلم- وبرد (عفوك يارسول الله!)، فكفَّ عنه-صلى الله عليه وسلم-، ويا للعجب من خُلُقه وحِلْمه-صلى الله عليه وسلم.

وقد رأينا هذه الثقة في موقف علي-رضي الله عنه- يوم الخندق، حين تصدى لعمرو بن عبد ودّ، بعد اقتحامه الخندق، وكان مقاتلاً شرسًا مرعبًا.. فيقول لعلي-رضي الله عنه- بلهجة الاستخفاف: (يا ابن أخي، والله ما أريد أن أقتلك)، فيرد هذا البطل المغوار الصغير: (ولكني والله أريد أن أقتلك)، فتفور دماء الحمية في عمرو بن عبد ودّ، وتنشب مبارزة حامية يلقَى في نهايتها هذا الكافر الفاجر مصرعه.

ثالثاً: الثقة في المنهج

فقد رسمه لنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيع عنها إلا هالك، وكلما اشتد الكيد والصد جدد السائرون العهد، هاتفين بشعار الموقنين: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (النمل:79)

نعم إنه الحق المبين.

- في مصدره:

فهو من عند الله، وهو الحق سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (الحج:62)

- وفي نزوله:

من مصدره الحق على قلب سيد الخلق محمد-صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء:192- 194). ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الإسراء:105)

- وفي محتواه إجمالاً:

فنحن نجزم بأنه الحق المبين على سبيل الإجمال والتعميم، تصديقًا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (فاطر:31). وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح:28)

- وفي محتواه تفصيلاً

حيث نجزم بأن كل جزئية من هذا المنهج هي حق مبين نتعامل معها بيقين.

كما راينا في موقف ابي الدرداء، حين اخبروه يومًا باحتراق داره، ففاجاهم بقوله (ما احترقت، ما كان الله ليفعل.. لكلمات سمعتها من رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، اللهم إني أعوذبك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. من قالها حين يصبح لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي لم تصبه مصيبة حتى يصبح".

ثم انطلق معهم أبو الدرداء واثقًا موقنًا، فإذا بالدور قد احترقت، وداره بينها لم يلحقها أذى.

وقد رأينا الثقة المطلقة للإمام البنا (رحمه الله) في منهج الدعوة المستقى من مهد الإسلام الأول الأصيل حين قال: (أيها الإخوان المسلمون، وبخاصةٍ المتحمسون المتعجلون منكم، اسمعوها منِّي كلمة عالية داوية، من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع: إن طريقكم هذه مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفًا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول. أجل قد تكون طريقًا طويلة، ولكن ليس هناك غيرها. إنما يظهر الرجولة الصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب. فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقتطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال. وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات، ومن صبر معي حتى تنمو البذرة، وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة) "من رسالة المؤتمر الخامس".

وقد عبَّر جند الدعوة عن ثقتهم في منهجهم أبلغ التعبير وأصدقه بمواصلة المسير على الطريق، بعدما خرجوا من أتون المحن، وما ضعُفوا وما استكانوا، وما ركنو إلى شيء من الدنيا، وما أخلدوا إلى الراحة، فجزاهم الله خيرًا كثيرًا عنا وعن الدعوة وعن الإسلام، وثبَّتنا وإياهم حتى نلقاه مع الصادقين غير مبدلين ولا مغيرين....

رابعاً: الثقة في القيادة:

وهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمنهج، فالقائد جدير بكل الثقة، إذا كان يقود غيره على منهج الحق، ويضرب المثل في التزامه، والحرص عليه، والمجاهدة في سبيله...

وقد تجلت الثقة في القيادة في مواقف عديدة قديمًا وحديثًا: فهذا أبو بكر-رضي الله عنه- يرد على من أتوه مستنكرين أمر الإسراء قائلاً (إن كان قال فقد صدق، والله إني لأصدقه في أبعد من هذا، في خبر السماء يأتيه بكرة وعشيًا) فقرع بهذا الإعلان المدوي للثقة في قائده رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أسماع المترددين في ريبهم، وأطلق به ضوءًا ساطعًا يبدد غشاوة المتخبطين في ظلماتهم؛ علَّهم يفيقون ويرجعون بعد أن زلزل الخبر كيانهم المعلول، وفضح إيمانهم المدخول.

وهذا عمر-رضي الله عنه- نراه في أول الأمر معترضًا على قتال مانعي الزكاة قائلاً: (كيف نقاتل قومًا شهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟!).

فيرد أبو بكر-رضي الله عنه- بلهجة المخلص الصادق: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة). وهنا يقول عمر-رضي الله عنه-: (فما هو إلا أن شرح الله صدري للقتال، حين رأيت أبا بكر قد انشرح صدره له).

فما أروع هذه الكلمات التي تنضح بالثقة في خليفة المسلمين أبي بكر!! إذ اعتبر عمر انشراح صدر أبي بكر للقتال دليلاً على أنه حق، وبهذا اعتبر قائده أبا بكر مثالاً للرجال، الذين يعرف الحق بهم، استثناءً من القاعدة المقررة في هذا الشأن: (يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال).

وقد رأينا هذه الثقة كذلك في موقف خالد بن الوليد مع الخليفة عمر (رضي الله عنهما)، إذ بدا لعمر أن يعزل خالدًا وهو في أوج انتصاره إبان فتح الشام حفاظًا على قلوب المسلمين من الفتنة بخالد، الذي لم يذق طعم الهزيمة قط في جاهلية ولا إسلام، وتأكيدًا على الحقيقة الإيمانية الثابتة: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: من الآية126) وقد كان أمر العزل هذا شديدَ الوطأة على خالد-رضي الله عنه- حيث لم يشفع بإيضاح ولا تبرير، ومع هذا تظهر جنديته المدهشة فيمتثل الأمر توًا، بل يلوم أبا عبيدة-رضي الله عنه-؛ لأنه أجَّل إبلاغه به حتى نهاية المعركة، وتزداد دهشتنا حين قيل له، وهو في هذا الموقف العصيب: (صبرًا أيها الأمير، فإنها الفتنة)، فيرد مؤكدًا ثقته المطلقة في قائده عمر: (أما وابن الخطاب حي فلا).

خامسًا: الثقة في الجندي:

وهي الوجه الآخر في القيادة، وهي حق للجندي مقابل واجبه إزاء قائده، وهي تفجر في الجندي ينابيع العطاء والإبداع والتضحية. وديوان الإسلام العظيم حافل بالشواهد على هذه الصورة من الثقة:

فحين طلب أهل اليمن من رسول الله-صلى الله عليه وسلم- رجلاً أمينًا يعلمهم أمر دينهم رد عليهم بقوله-صلى الله عليه وسلم- "إني مرسل إليكم برجل أمين حق أمين" وهو أبو عبيدة-رضي الله عنه.

وجلس عمر–وهو الخليفة– مع بعض أصحابه فقال لهم: (تمنَّوا) فتمنى أحدهم بيتًا مملوءًا بالذهب ينفقه في سبيل الله، وتوزعت أماني غيره يمنة ويسرة، فإذا بعمر يختم بإعلان أمنيته قائلاً (أتمنى بيتًا مملوءًا بأمثال أبي عبيدة؛ أستعين بهم على أمر الإسلام).

فانظروا إلى مدى الثقة الذي بلغه أبو عبيدة-رضي الله عنه- عند رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وعند عمر-رضي الله عنه- حين استوفى مؤهلاتها.

وهذا أسامة بن زيد-رضي الله عنه- ينال هذا الشرف الرفيع بثقة رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فيه حين ولاَّه قيادة الجيش على حداثة سنة، وكلفه أن يوطئ الخيل البلقاء من مملكة الروم؛ لتخويفهم وتأديبهم وإحباط كيدهم للإسلام والمسلمين. وقد امتدت ثقة النبي-صلى الله عليه وسلم- فيه إلى أبي بكر-رضي الله عنه- حين أصرَّ على إنفاذ بعثه بعد وفاة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وقد أثمرت هذه الثقة خيرًا كثيرًا، فنفذ أسامة-رضي الله عنه- التكاليف بدقة، وحقق الأهداف كاملةً من غير أن يصاب أحدٌ من جنده بأذى مع ما جلبوا من غنائم وفيرة، فكان بعثه-رضي الله عنه- أسلمَ وأغنمَ بعْثٍ عرفه تاريخ الجهاد الإسلامي.

وقد رأينا هذه الصورة من الثقة كذلك في موقف خالد بن الوليد مع البراء بن مالك-رضي الله عنهما- أثناء قتال بني حنيفة، أتباع مسيلمة الكذاب، إذ تحصن هؤلاء في حديقة الموت، وظلوا يمطرون المسلمين بنبالهم وسهامهم، فإذا بخالد يستنفرلهم البراء، وهو من أصغر الجند قائلاً له: (إليهم يا فتى الأنصار).

ففجرت هذه الكلمة-المفعمة بالثقة- في البراء طاقات هائلة مذخورة في نفسه، فصاح بأعلى صوته: (يا أهل المدينة، لا مدينة لكم بعد اليوم، وإنما الله والجنة). ثم استرسل، وهو في عنفوان حماسه:

(ضعوني على الترس، واحملوني على الرماح، وألقوني إليهم).

ففعلوا.. وإذا بالأعداء يفاجأون به، وكأنه صاعقة إلهية انقضَّت عليهم من السماء، ثم يسرع إلى باب الحديقة محاولاً فتحه، فيحدقون به من كل جانب تتناوشه سيوفهم فى رقابهم، وتُتوَّج هذه البطولة الرائعة بالنصر المؤزر المبين؛ ببركة الثقة في هذا الجندي الصغير.

سادسًا: الثقة بين الأفراد (عمومًا):

فالأصل في كل من ينتمي إلى فريق المؤمنين أنه أهل دين والتزام وخير وصلاح، وأنه أهل للثقة فيه والاطمئنان إليه، وقد أخذ المنافقون على رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أنه يصغي لكل من يحدثه، ويصدقه فيما يقول، ففضحهم الله في كتابه، وأثنى على ثقة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ

يُؤْذَونَ رَسُولَ اللهِ لهُمْ عَذَابٌ اِلِيمٌ﴾ (التوبة:61)

وقد سجل تراثنا الخالد كثيرًا من المواقف التي تؤكد هذه الصورة من الثقة: فعندما نزلت آيات تحويل القبلة مر رجل من المسلمين على جماعة يصلون في أحد مساجد المدينة، فصاح قائلاً: (أشهد أني صليت العصر الآن مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم- إلى بيت الله الحرام في مكة).

فما أن فرغ من كلامه حتى ماج المسجد بحركة تحول ودروان عجيبة من الإمام، وممن معه من المصلين رجالاً ونساءً وولدانًا، وهم ما زالوا في صلاتهم، ولم يصبروا حتى يفرغوا منها، ثم يستبرئوا الخبر ويستيقنوه، ويتبينوا صدق الراوي، بل افترضوا جميعًا الثقة في هذا القائل، رغم أنه مجهول لهم في تلك اللحظة، ورغم أن الأمر يتعلق باستقبال القبلة، وهو شرط لصحة الصلاة كما هو معلوم، ولا تثريب عليهم إن أتموا صلاتهم، دون تحول.. ولكنهم أبَوا إلا أن يقدموا هذا الأنموذج الفذّ في الثقة بين المسلمين، مع ما فيه من حسن امتثالهم لأمر الله، دون تلعثم ولا تردد. فرضي الله عنهم أجمعين....

وإذا نظرنا إلى هذا النبع الفَيَّاض من سنة رسول الله-صلى الله عليه وسلم- نجده قد تكوّن في معظمه بهذه الصورة من الثقة بين المسلمين. فالتلقي من رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أولاً، ثم التناقل بين الرواة ثانيًا، إنما تحاكمهما هذه الثقة، وقد قال البراء بن عازب-رضي الله عنه-: (ما كل الحديث سمعناه من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، كان يحدثنا أصحابه عنه). وقد صارت كلمة ثقة، وصفًا لناقل الحديث إذا عرف بصدقه وأمانته، مع حفظه وتثبته.. فحينئذ يكون أهلاً لهذه الثقة، ويستقبل نقله بالاطمئنان والقبول.

وحين وقعت حادثة الإفك التي تعرضت لشرف الصدّيقة ابنة الصديق، عائشة أم المؤمنين-رضي الله عنها-، ألقى القرآن باللوم الشديد بل وبالوعيد الأكيد على المتورطين فيها؛ حتى يرد المجتمع المسلم إلى أصل الثقة المراد تقريره فيه وتأكيده.. فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:11)

فكيف ثار ظن السوء في أهل الصلاح والطهارة ابتداءً دون أن تمنعه الثقة، وكيف سار بين الناس بعد ذلك دون أن تئده الثقة في مهده كذلك، ثم ينبه القرآن إلى ما كان ينبغي أن يكون عليه التصرف في هذا الموقف، انطلاقًا من قاعدة الثقة بين المؤمنين: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (النور:12)

ومعلوم مما ذكر، أن هذه الثقة إنما نتعامل بها مع أهل الإيمان والصلاح والخير، وهذا لا يعني أن ننخدع بمسلك المخادعين والمتلونين من غيرهم، بل علينا أن نتبنى المبدأ العملي الحكيم في التعامل مع عموم الناس:(لست بالخب، ولكن الخب لا يخدعني).

من معاني النصر:

قد لا يستطيع الإنسان أن ينتصر لنفسه مباشرة وبيده، ولكن ينتصر له الله، فينتقم من الظالم في حياة المظلوم، ولذا فينبغي أن نذكِّر دائمًا الذين يحادون الله ورسوله، ويقعدون بالمرصاد لأوليائه وعباده المجاهدين، ما حلَّ بالأمم السابقة، والذين يسيرون على نهجهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأوَّلِينَ﴾ (الأنفال:38)

ويقول للمسلم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ (الروم:60)

ليعلموا أن مصير من يخرج عن سنة الله، فمصيرُه مصيرُ الكواكب التي تخرج عن مدارها؛ لتتحطم وتسقط من عليائها.

فلنعمل ولنثق في نصر الله؛ ليتحقق حينئذ قول ربنا: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾(الصف: من الآية14)

www.ikhwanonline.com/article/238206